

خلفيات الاتجاهات الفلسفية المعاصرة في إيران

(قراءة في الخلقيّة التاريجيّة والتشكّل المعرفي الراهن)

تأليف: د. أحد قراملكي

ترجمة: د. حبيب فياض

يقدم الدكتور أحد قراملكي في هذا البحث صورةً عن اتجاهات الفلسفة
المجنة الإسلامية المعاصرة في إيران؛ وذلك من خلال عرض المراحل التكوينية لهذا
ال الفكر، لذلك نرى أن الكاتب لم يكتف بالتصويف، بل عمل على البحث عن الأسس
المعرفية لهذا الواقع.

عوامل التجديد في الفلسفة الإسلامية في إيران:

تعود الخطوات الأولى بإتجاه عصرنة الفلسفة الإسلامية إلى القرن الحادى عشر
المجري، وتحديداً إلى "الحكمة المتعالية" التي جاء بها الملا صدرا الشيرازي
(١٠٥٠-١٧٩٩هـ). حيث إتّسمت هذه الحكمة التي تميزت عن الفلسفتين المشائىة
والإشراقية بإشتمالها على آراء ونظريات ومسائل خلت منها الفلسفات السابقة عليها.
إضافة إلى إتيانها بمنهج جديد على مستوى المعالجات الفلسفية والمعرفية. الأمر الذي
دفع الكثير من الباحثين والمؤرخين في عالم الفلسفة إلى اعتبارها منظومة فلسفية
إسلامية تجمع في آن، بين الجدية والعمق والشمولية.

من هذه المباحث: تبديل الإمكان الماهوي إلى إمكان وجودي وفقرى، تحويل نظرية
الحدث الذاتي إلى الحدوث الأزلي.. إبتكار نظرية الحركة الجوهرية، والقول بربط
وتعلق الكون، نظرية الوجود الرابط والوجود المستقل، التجديد في مباحث الوجود
الذهنى ومن بينها مبحث «نظرية القيام الصدورى للصور المحسوسة»، القول بالوحدة

التشكيكية في الوجود، إضافة إلى آراء جديدة في مجال علم الإنسنة، وخاصة فيما يتعلق بالتمايز النوعي لأفراد الإنسان طبقاً لما ي قوله في نظريته الخاصة حول الحقيقة الأدبية، وآراء أخرى على صلة بعلم المعرفة و...».

لكن المائز الأساسي في الفلسفة الصدرائية، والذي شكل عاملًا لديمومتها طوال القرون الأربع الماضية يكمن في وجهة المنهج المعرفي الذي سلكته، إذ أحد أبعاد تعالي فلسفة الملا صدرا، هو التعالي عن مناهج التفلسف المعروفة والسايدة... وهذا ما نعبر عنه بـ«منهج التعددية العلمية».

ثمة خصوصية أخرى في فلسفة ملا صدرا تجعل منها متّسقة ومتجانسة، وهي دفع وتوجيه التأملات الفلسفية نحو مسائل الإلهيات... فالله تعالى هو المحور الأساسي للمنظومة الفلسفية الصدرائية، بحيث إن الإرتباط الوجودي للكون والإنسان متعلق به تعالى... فإن معرفة الله، - وبتعبير أشمل المبدأ والمعد -، أشبه ما تكون بالخيط الذي يتكلّف بجمع وتوليف كافة المسائل الحكمية في الحكمة المتعالية.

لقد أوجد الملا صدرا منظومة فلسفية جديدة، أدت إلى خلق تحول أساسي في الإلهيات وعلم معرفة الله. من هنا، لا نقف في آثار الملا صدرا على أي مبحث يتناوله فلسفياً مجرد التفلسف؛ بمعنى أن المسار الفلسفى عنده يتوجه بكليته نحو «معرفة الله». ونجد في الحكمة المتعالية الكثير من التداخل والتوليف بين الإلهيات بالمعنى الأعم، والإلهيات بالمعنى الأخص؛ إذ رؤية الملا صدرا الجديدة للوجود المتمثلة بنظريته حول «أصلية الوجود والتشكيك الخاص في الوجود»، هذه الرؤية إستخدمها الملا صدرا خير استخدام إذ يبيّن مستلزماتها ونتائجها في سياق مباحث معرفة الله.

إن فهم العوامل والباحث التي أدت إلى تجديد الفلسفة الإسلامية منوط بمعرفة المسار التاريخي للفكر الفلسفى الإسلامي والظروف التي عايشها الملا صدرا، حيث كثيراً ما يشير في آثاره ومؤلفاته إلى آراء السابقين من الحكماء، وخاصة الحكماء الذين عاشوا قبيل عصره... ومن المعلوم أن الملا صدرا ينتمي إلى الحوزة الفلسفية الإصفهانية، وتتلذذ على يد حكماء من أمثال الميرداماد.. وكان قد ظهر في حوزة إصفهان الفلسفية تياران

فلسفيان متنافسان الاول: اتبع الملا رجب علي التبريزى، فيما التف الثاني حول الملحدا الشيرازي. ولقد ساهم التناقض والإختلاف بين هذين التيارين إلى حد كبير بإعادة بناء الفكر الفلسفى الإسلامى وظهور مرحلة جديدة من تاريخ الفلسفة الإسلامية. والجامعة الفلسفية الإصفهانية بدورها، تأثرت كثيراً بالجامعة الفلسفية الشيرازية؛ حيث ساهمت هذه الأخيرة في تهيئة الأرضية وتوفير عوامل النمو والتطور للأولى.. وللجامعة الشيرازية عدة خصائص ومميزات أساسية أهمها:

١ - لقد كان لدى مفكري هذه المرحلة إحاطة وإطلاع على مختلف العلوم؛ الفلسفة المشائية، علم الكلام، العرفان، الحكمة الإشراقية، التفسير، و... ومن أهم المصادر العلمية التي كانت رائجة آنذاك «الشفاء» لابن سينا. «التجريد» للخواجة الطوسي، «هياكل النور» لشيخ الإشراق. وخضعت هذه المصادر للبحث والدراسة، وكتب حولها الكثير من الشروح والتعليقات. ولقد إنطلق هذا التنوع العلمي إلى الجامعة الإصفهانية، وخلق مناخاً ملائماً لإنطلاق «منهج العلومية التعددية».

٢ - المباحث المتعلقة بـ«معرفة الله» هي المباحث الأساسية في هذه الدراسات المتنوعة. ولقد ألفت رسائل كثيرة في مجال إثبات وجود الواجب تعالى، إشتملت على مباحث نقدية لآراء الحكماء المتنافسين في هذا الخصوص، وجرت إلى الخوض في تفسير الآيات المختصة بالمبدا والمعداد، الأمر الذي أفسح في المجال أمام دراسات وتأملات جديدة حول علم «معرفة الله» تعالى. إذ كانت الحصيلة البارزة لهذه التأملات ظهور براهين جديدة، - حول إثبات الباريء، - مثل براهين الصديقين، وإعادة تشكيل مفاهيم جديدة في الإلهيات، والبحث ميتافيزيقياً حول أوصاف الباريء تعالى.

٣ - لقد فتحت المباحث المتعلقة بالمغالطات (والناتجة عن اختلاف وجهات النظر بين المدرسة الجلالية من جهة، والصدرية من جهة ثانية داخل حوزة شيراز الفلسفية، - الكلامية) الباب واسعاً أمام تأملات ودراسات في مجال علم المعرفة -، حيث كتب في هذه المرحلة أكثر من عشرين رسالة في سبيل حل إشكالية «الجذر الأصم» (إشكالية كل كلامي كاذب).

فأَلْفَ كُلُّ مِنْ جَلَالِ الدِّينِ، صَدَرَ الدِّينُ الدِّشْتَكِيُّ وَالخَفْرِيُّ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى خَمْسٍ رَسَائِلٍ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ. كَمَا بَدَأَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ تَأْلِيفُ رَسَائِلٍ مُسْتَقْلَةٍ فِي بَابِ الْمَفَالِطَاتِ وَالْإِشْكَالِيَّاتِ الْمَنْطَقِيَّةِ، وَالْفَلْسُفَيَّةِ وَالْكَلَامِيَّةِ.

إِنْ طَرَحَ وَتَنَاهَى إِلَيْهِ إِشْكَالِيَّاتِ الْمَنْطَقِيَّةِ، إِضَافَةً إِلَى نَقْدٍ وَتَقْيِيمٍ مَعَالِجَاتِ الْقَدِمَاءِ لِهَذِهِ إِشْكَالِيَّاتِ، كُلُّ ذَلِكَ، جَذَبَ إِنْتِبَاهَ الْحَكَمَاءِ إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ التَّفَرَّقَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَأَوْجَدَ الْأَرْضِيَّةَ الْمَلَائِمَةَ لِلْعَمَلِ عَلَى اِنْضَاجٍ وَتَحْدِيثِ الرَّؤْيَ الْمَطْرُوحَةِ فِي مَجَالِ عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ.. وَسَرَعَانَ مَا اَنْتَقَلَ هَذَا الْجَوَّ إِلَى حُوزَةِ اِصْفَهَانِ الْفَلْسُفَيَّةِ لِيُصْبِحَ مِنْ خَاصِيَّاتِهَا وَمُمْزِّعَاتِهَا.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأْثِيرِ حُوزَةِ الْفَلْسُفَيَّةِ الْاِصْفَهَانِيَّةِ بِالْأَجْوَاءِ الْفَلْسُفَيَّةِ الَّتِي اسْتَوْلَدَتْهَا حُوزَةُ الشِّيرازِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهَا وَبِخَلْفِ هَذِهِ الْآخِيرَةِ، تَرَعَرَعَتْ وَنَشَطَتْ فِي اِجْوَاءِ يَسُودُهَا الْفَكَرُ الشِّيعِيُّ... فَأَوْلَى الْحَكَمَاءِ الشِّيعَيَّةِ أَهْمَيَّةَ خَاصَّةَ لِرَوَايَاتِ وَمَعَارِفِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام.

إِذْ إِسْتَفَادُوا مِنْهَا بِمَا هِيَ مَصْدِرُهُمْ لِطَرْحِ الْأَسْئَلَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْإِجَابَةِ عَلَيْهَا.

بَنَاءً عَلَى مَا تَقْدِمُ، وَلَدَتِ الْفَلْسُفَةُ الْاسْلَامِيَّةُ الْجَدِيدَةُ وَهِيَ تَمْتَازُ بِعَدَّةِ خَصَائِصٍ أَهْمَّهَا:

أَوْلًاً: الْابْتِعَادُ عَنِ الْحَصْرِيَّةِ وَالْأَحَادِيَّةِ الْمَنْهَجِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، وَالْاِتِّجَاهُ نَحْوَ التَّعْدِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَالْإِسْتَفَادَةُ مِنْ آرَاءِ وَانْجَازَاتِ أَصْحَابِ الرَّأِيِّ فِي مُخْتَلِفِ الْمَذاهِبِ الْفَلْسُفَيَّةِ وَالْعِلُومِ.. هَذَا بَعْدَمَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُونَ يَهْفَّتُونَ الْفَلْسُفَةَ، وَالْفَلَاسِفَةَ يَخْطُئُونَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَالْعُرْفَاءَ يَرْفَضُونَ الْإِثْنَيْنِ مَعًا، فَضْلًا عَنِ اِعْتِرَاضِ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْمَنَاهِجِ الْمَدِينِيَّةِ، وَالنَّظَرِيَّاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا كُلُّ هُؤُلَاءِ.

لَقَدْ اعْتَقَدَ الْمَلَاصِدِرَا أَنَّهُ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى رَؤْيَةِ مَعْرِفَةٍ شَامِلَةٍ عَنْ طَرِيقِ الْجَدَالِ الْفَكَرِيِّ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْمَنَاهِجِ وَالآرَاءِ فِي مَجاَلَاتِ الْمَنْطَقَ، الْفَلْسُفَةِ، الْكَلَامِ، الْعِرْفَانِ، التَّفْسِيرِ وَ...، بَنْحُو يَجُوزُ مَعَهُ القَوْلُ أَنَّ الْحَكْمَةَ الْمَتَعَالِيَّةَ قَدْ انْطَلَقَتْ مِنْ عِنْدِ هَذِهِ النَّقْطَةِ تَحْدِيدًا فِي «الْمَنْهَجِيَّةِ الْمَتَعَدِّدَةِ» عَلَى مَسْتَوِيِّ الْإِلَهِيَّاتِ.

ثَانِيًّاً: الْمَوْضُوعُ الْأَسَاسِيُّ فِي «الْمَنْهَجِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَتَعَدِّدَةِ» هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَلَاقَةُ

الإنسان والكون به. وإنطلاقاً من علم المعرفة اتجهت هذه المنهجية الى «معرفة الله»، معرفة العالم، ومعرفة الإنسان. اضافة الى ذلك فان برهان الصديقين والتجليات المتعالية لأوصاف الباري تعالى شكلاً ملهمًا أساساً للتأملات والدراسات الفلسفية في مورد قضايا الإلهيات والفكر الفلسفي الديني.

هذا فضلاً عن اصحاب الفلسفة في عالم الطبيعة؛ اذ ان نظرية الحركة الجوهرية مثلاً لا يقتصر دورها على تفسير العلاقة بين الله تعالى والكون. بل تتکفل أيضاً بتقديم رؤية فلسفية جديدة في مجال علم الطبيعة.. ولقد وصلت هذه النظرية الى ذروتها على أيدي الصدرائين الجدد من أمثال: العالمة الطباطبائي وغيره، حيث صير الى التقطير بشكل علمي ودقيق لمسألة: «لا استقرارية العالم» طبقاً للشأن الريوبي: «كل يوم هو في شأن»، وأيضاً في باب «علم الإنسنة». فان الملحدون استطاعوا في اطار علم النفس سبر أغوار الحقيقة الإنسانية، وبين ان لهذه الحقيقة ابعاداً وامتدادات اكثر عمقاً وشمولاً مما هو متعلق بالانسان في حياته اليومية.

ثالثاً: لقد أولت الفلسفة الإسلامية المعاصرة أهمية كبيرة لموضوع العقل والوجود الذهني، ومسألة المعرفة والمحالطات الذهنية.. ولعل أهم الجهود التجددية التي قام بها الملحدون تتجلى في هذا الإطار؛ حيث انصرف الى تقديم رؤى جديدة حول مفهوم علم المعرفة، علم الوجود، العدم، المعقولات الثانية... كما ان البحوث والاشكاليات التي أثيرت حول مسألة الوهم قد تکفلت بتابع الحكم المتعالية بالرد عليها ومعالجتها وفي هذا المجال يلاحظ بان العالمة الطباطبائي احد ابرز حكماء الصدرائية الجديدة كان أول من بادر إلى الخوض والتقطير حول هذا الموضوع؛ اذ من أهم إنجازاته البحثية في هذا الميدان، تفككه وتمييزه المعرفي - المنهجي بين الادراکات الاعتبارية المحضة والإدراکات الحقيقة.. وتفسيره لعملية حصول المعرفة لدى الذهن البشري عن طريق المعقولات الثانية الفلسفية. وقوله بمبدأ مسبوقة كل علم حصولي بعلم حضوري.. اضافة الى بلورته لمفهوم جديد حول موضوعة «نفس الأمر» المتداولة منذ زمان الخواجة الطوسي على أساس انها «عالم العقل» ومناط صدق القضايا الحقيقة.

رابعاً: ان الصلع المعرفي الأهم في الفلسفة الإسلامية المعاصرة هو التشكّل المفهومي الجديد لمفاهيم أساسية ورئيسية في الفلسفة التقليدية مثل: مفاهيم الوجود، العليّة، الإمكان، الحركة، النفس، الزمان... حيث تطّورت مؤديات هذه المفاهيم بالعموم، وباتت تشتمل على مضمونين ومدلولات جديدة، فإنّقلت «العليّة» من الاضافة المقولية الى الاضافة الاشراقية... واستبدل «الإمكان الماهوي» الذي قال به ابن سينا «بالإمكان الوجودي» الذي جاء به الملاصدرا. وبشكل عام، فإن التجديد في هذين المفهومين قد ساهم في جعل الحكمة المتعالية متقدّدة من حيث هندستها المعرفية. إذ ذهب الملاصدرا على ضوء هذين المفهومين الى تفسير العالم على أساس «من عنده تعالى»، وأيضاً الى القول بالوجود الرابط؛ وبالتالي وصول علم «معرفة الله» الى ذروته الفلسفية.

خامساً: لم يذهب الملاصدرا فحسب الى نفي أي اختلاف بين العقل والنقل، بل اعتبر ايضاً ان الروايات المأثورة عن النبي ﷺ واهل البيت ﷺ تمثل الملام المعطى الأكثر قوّة وغنى في البحث الفلسفـي... ففي شرحه على أصول الكافي للكليني يبيّن كيف ان هناك وحدة بين البرهان، والعرفان، والقرآن (السنة)... وبالعموم فإن الحكمة المتعالية قد ساهمت في اثراء الفكر الإسلامي الشيعي على نحو كبير.

متعلّق التجدد في الفلسفة الإسلامية المعاصرة:

ثمة أضلاع وأركان مختلفة يطالها التجدد في الفلسفة الإسلامية المعاصرة:

الركن الأول: التجدد في التشكّل المفهومي، وما يستتبع ذلك من تجدد في الرؤية الى المسائل الفلسفية التقليدية.. ولقد أشرنا سابقاً الى نماذج من هذا القبيل... اذ - على سبيل المثال -، التشكّل الجديد لمفهوم الحدوث أفضى إلى نظرية خاصة، وجديدة حول حدوث العالم، وبالتالي استولى معالجة مستحدثة لمسألة تقليدية. كما ان الصياغة الجديدة لمفهوم الإمكان أدت الى رؤية معاصرة إزاء العلاقة بين الواجب تعالى والعالم وازاء مسألة مناط احتياج الشيء الى العلة.

الركن الثاني: يتعلّق هذا الركن بتجدد الفلسفة الإسلامية من جهة المنهج، فـ«منهجية العلومية المتعددة» أهم ميزة في الفكر الفلسفي الجديد؛ لأن المنهج الذي يشتمل على الدراسات الفلسفية، المباحث الكلامية، المرتكزات العرفانية، والرؤى القرآنية والداخل الدينية، لاريب في كونه منهجاً أكثر شمولية وانسجاماً وانتاجاً للمعرفة.. وهذا ما نحن بأمسّ الحاجة إليه في عصرنا الحاضر.. لقد عمل الصدرائيون الجدد من أمثال الإمام الخميني، والعلامة الطباطبائي إلى صهر الفقه والاصول، التفسير، وعلم الحديث، العرفان، والفلسفة، والكلام في بوتقة واحدة واستخراج رؤية معرفية شاملة وعميقة ومنسجمة في آن من هذا كله.

الركن الثالث: في الفلسفة الإسلامية المعاصرة يتمثل في طرح مسائل جديدة تناولها فلاسفة مسلمون معاصرلون من أمثال العلامة الطباطبائي، انطلاقاً من الرؤى العمقة التي انتجتها الحكمة المتعالية، خاصة المسائل الفلسفية التي جاءت بها الماركسية واتبعها.. فالخوض في علم المعرفة والرؤية الكونية اللتين جاء بهما ماركس، على سبيل المثال، أفضى إلى مباحث ومسائل جديدة في سياق مباحث الفلسفة الإسلامية.

لقد كان العلامة الطباطبائي من أكثر المجددين في مجال علم المعرفة؛ فجدد في مسائل هذا العلم، وأوجد آراء ونظريات جديدة في موضوعاته مثل: التمييز بين الادراكات الاعتبارية المحسنة، والادراكات الحقيقية، ونفي الارتباط الاستنتاجي بينهما، مسبوقة الادراكات الاعتبارية المحسنة، على الوضعية الاجتماعية والثقافية للفرد، تبيّن عملية حصول المعرفة لدى الإنسان بالنسبة للادراكات الاعتبارية، نفس الأممية وخاصة نحو ادراك المعقولات الثانية، مثل العدم، الوجود و... والقول بمبدأ مسبوقة أي علم حصولي بعلم حضوري. اضافة إلى قوله (ره) بإمكانية حصول الحركة في الحركة؛ حيث كان يعتبرها الملاصدراً من الحالات... كل هذه نماذج للمنجزات التي حقّقها العلامة الطباطبائي في سياق مباحثه وتأملاته الفلسفية.

العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والالهيات التي تشكّل البعد الاهم في تفكير

الصدرائيين، ساقـت الفلسفة المعاصرة في ایران الى مواجهة نقدية وجديـة في مقابل الفكر الالهـياتي الجديد، والمسائل الكلامية الجديدة؛ حيث ترکـزت هذه المواجهة على موضوعات من قبـيل: قابلـية القضايا الدينـية للإثباتـ، التجارـب الدينـية، إحتـياتـ الانـسان الـوجودـية، التـعدـيات الدينـية، الدينـ والتـتمـيمـة، وتحـليلـ موضوعـ الإيمـانـ.

ويلاحظ انـ الحـكمـةـ المـعاـصـرـةـ فيـ اـیرـانـ قدـ طـوـتـ ثـلـاثـ مـراـحلـ مـخـتـلـفـةـ، عـلـىـ مـسـتـوـىـ تـجـدـيدـ الـمـسـائـلـ وـالـمـبـاحـثـ الـفـلـسـفـيـةـ خـاصـةـ وـالـعـقـلـيـةـ عـمـومـاـ؛ـ المـرـحـلـةـ الـأـولـىـ تـبـدـأـ مـعـ ثـورـةـ الـدـسـتـورـ (ـالـشـرـوـطـةـ)،ـ حـيـثـ تـزـامـنـتـ مـعـ التـحـوـلـ التـدـريـجيـ مـنـ المـدـرـسـةـ الـصـدـرـائـيـةـ الـاـصـفـهـانـيـةـ،ـ إـلـىـ الـمـدـرـسـةـ الـصـدـرـائـيـةـ الـجـدـيـدـةـ فـيـ طـهـرـانـ..ـ الـمـرـحـلـةـ الـثـانـيـةـ:ـ اـقـتـرـنـتـ بـالـارـتـبـاطـ الـوـثـيقـ الـذـيـ اوـجـدـتـهـ الـثـورـةـ الـاسـلـامـيـةـ بـيـنـ الـدـيـنـ وـالـشـؤـونـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ..ـ وـالـخـوضـ فـيـ رـؤـىـ اـسـلـامـيـةـ عـصـرـيـةـ حـولـ مـخـتـلـفـ هـذـهـ الـمـجـالـاتـ.ـ اـمـاـ الـمـرـحـلـةـ الـثـالـثـةـ:ـ فـتـبـدـأـ مـعـ العـقـدـ الـأـخـيـرـ مـنـ عمرـ الـثـورـةـ الـاسـلـامـيـةـ؛ـ حـيـثـ وـصـلـ الـعـمـلـ عـلـىـ تـجـدـيدـ عـلـمـ الـكـلـامـ،ـ وـالـفـكـرـ الـلـاهـوتـيـ الجـدـيـدـ الـىـ ذـرـوـتـهـ،ـ مـعـ ماـ رـافـقـ ذـلـكـ مـنـ تـقـدـيمـ رـؤـىـ فـلـسـفـيـةـ وـفـكـرـيـةـ اـسـلـامـيـةـ مـعـاصـرـةـ فـيـ مـقـابـلـ الـتـقـلـيدـيـةـ،ـ الـحدـاثـةـ،ـ وـماـ بـعـدـ الـحدـاثـةـ.

الفـلـسـفـةـ الـاسـلـامـيـةـ الـمـعاـصـرـةـ:ـ لـمـحةـ تـأـريـخـيـةـ:

لا يتـسـعـ المـجـالـ فـيـ مـقـالـةـ مـحـدـودـةـ كـهـذـهـ لـلـحـدـيثـ عـنـ التـطـوـرـ التـأـريـخـيـ لـمـراـحلـ التـجـددـ الـفـلـسـفيـ وـالـعـقـلـيـ عـنـ الـفـلـاسـفـةـ الـمـسـلـمـيـنـ.ـ لـكـنـ الـمـلاـحظـةـ الـتـيـ يـجـدـرـ اـيـرـادـهاـ فـيـ هـذـهـ الـمـقـامـ هـيـ اـنـهـ مـنـ الـخـطـأـ القـوـلـ بـالـمـرـادـفـةـ اوـ الـمـساـوـقـةـ،ـ اوـ حـتـىـ الـمـلـازـمـةـ بـيـنـ «ـالـفـلـسـفـةـ»ـ وـ«ـالـعـقـلـانـيـةـ»ـ..ـ

يـنـقـسـمـ الـتـيـارـ الـعـقـلـانـيـ فـيـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ،ـ بـشـكـلـ عـامـ الـىـ مـجـمـوعـتـيـنـ.ـ يـمـكـنـ وـصـفـهـمـاـ،ـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ بـالـمـتـافـسـتـيـنـ:

- المـجـمـوعـةـ الـأـولـىـ:ـ عـبـارـةـ عـنـ الـفـلـاسـفـةـ،ـ وـالـذـينـ تـعـرـفـواـ عـلـىـ آرـاءـ الـأـفـلـاطـونـيـةـ الـجـدـيـدـةـ الـاسـكـنـدـرـانـيـةـ،ـ فـاعـتـبـرـوـهـاـ اـمـتـدـادـاـ لـلـفـكـرـ الـأـرـسـطـيـ..ـ وـيـعـتـبـرـ الـفـارـابـيـ وـابـنـ سـيـناـ

من أهم اقطاب وشرح هذه المجموعة، حيث يشكل قسماً من التاسعات الأفلاطينية المعروفة باسم أثولوجيا أرسطو المنطلق الأساسي للفكر الالاهوتى لدى هذين الفيلسوفين..

أما ابن رشد الذي لعب دوراً كبيراً في نقد شروحات ابن سينا بفلسفة أرسطو، فإن فكره الفلسفى لم يكتب له الرواج والشىوع في ایران، اذ بقى آثار ابن سينا المصادر الأساسية للتعرف على الفلسفة المشائية في الحوزتين الاصفهانية والشيرازية. كما ان الشروحات والتعليقات والمعالجات النقدية التي كتبت على «الشفاء» من قبل حكماء هاتين الحوزتين، تكاد تخلو من تأثير الآراء الرشدية النقدية، لكن هذا كلہ لم يحل دون تأثر الملاصدرا ببعض الآراء الرشدية التي اتّخذ منها مدخلية لانتقاد الفلسفة السينوية في بعض آرائها.

- المجموعة الثانية من التيار العقلاني تمثل في المتكلمين، إذ بالإضافة إلى الأشاعرة والشيعة اللذين يصنفان في صميم الحركة الكلامية العقلانية، فإن المعتزلة أيضاً قد ذهبوا إلى التمسّك بالإستدلال العقلي انطلاقاً من فهمهم الخاص للعقلانية..

ولقد بَرَزَ في وسط هذه المجموعة أهم المتكلمين الذين عرفتهم العالم الإسلامي على مدى القرن السادس، السابع، والثامن للهجرة. فالفارخر الرازي لعب دوراً أساسياً في هذا السياق؛ حيث شَكَّلَ إصراره على التمسّك بأسس الحجّة البرهانية في النمط الفلسفى الذي اتبّعه، - فيه مناقشة آراء من سبقة من الفلاسفة -، بداية لـ«الكلام الفلسفى» في الفكر الأشعري.. ثم جاء من بعده الكاتبى القزويني الذى كان أول من تمسّك بمنهجية الرازي البحثية والتي توّلى أهمية كبيرة للمبانى الكلامية والمناهج المتكلمية. ويعتبر كتاب «المنصص» للكاتبى القزويني، والذي يشتمل على شروحات نقدية لكتاب الفخر الرازي المهم «الملخص» نموذجاً بارزاً لهذا النمط من المباحث.

اما الخواجہ الطوسي، ذائع الصيت من بين المتكلمين الشيعة، فقد شكل بداية مرحلة جديدة من التفكير العقلاني في تاريخ الفكر الاسلامي، اذ على الرغم من كون الكلام الشيعي اكثر قريراً من «الاعتزال»، الا ان أحداً لا يستطيع انكار تأثير الخواجہ

الطوسي بالفخر الرازي كلامياً وفلسفياً، ومع ان الخواجة الطوسي كان من أبرز المعارضين والمنتقدين لآراء الفخر الرازي، لكن مباني هذا الأخير أرخت بظلاتها على تفكير الطوسي في موارد عديدة مثل: انكار القول بمسبوقية الحادث بمادة ومدة، الهيولي الأولى، ونقد الأدلة المثبتة للعقل المفارق.

ولقد صير في مرحلة لاحقة الى العمل على استكمال منهجية الفخر الرازي، وانضاجها على يد العديد من الحكماء مثل عضد الدين الأيجي؛ حيث اعتبرت نتاجاتها الميراث الأبرز للحوزة الشيرازية الفلسفية. كذلك فإن فلسفة الخواجة الطوسي شهدت رواجاً في هذه الحوزة عن طريق الشروحات التي ألفت حول كتابه البارز «تجريد الإعتقداد».. أما الحوزة الإصفهانية الفلسفية، فقد عاشت تاريخاً حافلاً بتطور الفكر الكلامي والفلسفي نتيجة جهود كبيرة قام بها كل من المير فندرسكي (١٠٢٠ هـ) والميرداماد. وامتد هذا التطور وتوزع على مدرستين متنافستين، مدرسة الملا رجب على التبريز (١٠٤٨ هـ)، ومدرسة الملachers.. فتخرج من المدرسة الأولى فلاسفة بارزون من أمثال الشيروانی، محمد سراب تکابنی، الخونساري. بيد أن الغلبة والديمومة كتبت في النهاية لمدرسة الملachers «الحكمة المتعالية»؛ حيث انتقلت الى طهران تدريجياً بعد ما شكلت نقطة تقاطع وإلتقاء بين العرفان، والفلسفة والتفسير والكلام.

أما المدرسة الفلسفية في طهران فقد شهدت ثلاثة مراحل مهمة: الأولى: تبدأ مع الحكيم الزنجوي (الأب والإبن)، حيث امتازت بدراسات معمقة في الحكمة المتعالية، فالملا عبدالله الزنجوي (متوفى ١٢١٩ هـ. ش) عمل على رفع مواضع الإبهام في هذه الحكمة، واستخراج مكنوناتها، وتسلیط الضوء على خفاياها.

كما راجت في هذه المرحلة الكتابات الفلسفية باللغة الفارسية على أيدي حكماء مثل المیرزا ابوالحسن جلوة (متوفى ١٢٧٣ هـ. ش)، والمیرزا حسن کرمانشاهی (١٢٩٦ هـ. ش)، والمیرزا هاشم رشتی (١٢٥٣ هـ. ش).

أما المرحلة الثانية في المدرسة الفلسفية الطهرانية، والتي تسمى بالمرحلة الوسطى، فتمتد من عند المیرزا طاهر التکابنی إلى العلامة الشعراوی. وهي مرحلة انتقالية بدأ

فيها التحول التدريجي من الحكمة المتعالية إلى الفكر الفلسفي الصدرائي الجديد، وإلى الإتجاهات المتوعة في الفلسفة.. وشهدت هذه المرحلة رواج النصوص الفلسفية باللغة الفارسية، وإقامة علاقات بين الحكماء والمراکز الجامعية داخل ایران وخارجها، وانطلاق الحوارات الفكرية بين مختلف المذاهب والاتجاهات الفلسفية. كما ان هذه المرحلة شهدت الثورة الدستورية.. هذه الثورة التي تعتبر بحسب السياق التاريخي لحظة البداية لانطلاق الفكر الكلامي الجديد في ایران.

اما المرحلة الثالثة من عمر مدرسة طهران الفلسفية فتمثل في عصرنا الراهن؛ اذ ان اهم ما يميز هذه المرحلة افتتاح الفكر الفلسفي الإسلامي المتمثل بالحكمة المتعالية على الفكر الفلسفي الغربي، والتعاطي النقدي مع المسائل الجديدة في الإلهيات المسيحية، ومواجهة الفكر الإلحادي، والعودة الى الفكر الأيدلولوجي الديني.. كل هذه المميزات يمكن القول انها شكّلت ابعاداً مختلفة للفكر الإسلامي المعاصر.

أبرز الآراء والشخصيات الفلسفية المعاصرة:

اقترن الفكر الفلسفي المعاصر بعدد من الشخصيات الفكرية البارزة من أمثال الزنوزي الذي عاصر الحكيم السبزواري، حيث لعب هذا الحكيم دوراً ناجحاً الى حد كبير في تقييم وتقدير وتنمية الفلسفة الصدرائية، ومن إنجازاته المهمة: إعادة صياغة منظومة فلسفية جديدة في إطار موضوع المعاد، معالجاته المعرفية والوجودية حول مسألة «الحمل» والبنية المنطقية، التمييز بين شرح الإسم وشرح اللفظ، إضافة إلى آرائه حول محدودية الحد والبرهان.. وبالعموم فإن مصنفات الزنوزي جمعت في ثلاثة مجلدات، وطبعت في طهران، وتعتبر من أمّهات المصادر للصدرائية الجديدة...

الميرزا مهدي آشتiani من المدرّسين والشارحين البارزين للحكمة المتعالية. وتعليقته على شرح المنظومة للسبزواري تعدّ من التعليقات العميقه والمثمرة، اذ تشمل في قسم المنطق منها على تأملات وجودية معرفية إزاء المباحث المنطقية، كما تشمل على معالجات جادة للاشكاليات والمعميات المنطقية.. إضافة الى ذلك يلاحظ

في قسم الإلهيات بالمعنى الأخص من هذه التعليقة التركيز على تقريرات الملاصدرا المختلفة لبرهان الصديقين. وللأشتiani كتاب مهم (أساس توحيد) يعيد فيه شرح وتفسير قاعدة «الواحد لا يصدر عنه...» كما يستعرض فيه رؤية كونية حول الوجود من منطلقات فلسفية وداخلدية.

كذلك، الميرزا أحمد الأشتiani الذي اشتهر بطرح ومعالجة المسائل الكلامية الجديدة، إضافة إلى العالمة الطباطبائي الذي كان من الحكماء المعروفين في عصرنا الراهن، اذ ابرز ما ميّز منهجيته البحثية تمسكه بالبرهان وسعيه لصياغة منظومة وجودية شاملة. هذا ويعتبر الطباطبائي الأكثر تجدیداً بين الحكماء على مستوى الفكر الإسلامي المعاصر. ولقد اشرنا فيما سبق إلى نماذج من انجازاته في هذا المجال.

الشهيد مرتضى المطهرى أيضاً من الأسماء اللامعة في تدريس الحكمة المتعالية. وشاع اسمه كمفكر بارز خاض بموضوعات جديدة وعلى درجة عالية من الأهمية والحساسية.. وكان صاحب منهجية استدلالية ورؤية نقدية أرخت بظلالها على الفلسفة الإسلامية المعاصرة وتركت بصماتها على الفكر الإسلامي الحديث.

أما السيد جلال الدين الأشتiani والذي رأى فيه بعض المستشرقين ملاصدرا آخر، فهو من الفلاسفة الإيرانيين المعاصرين الذين كان لجهودهم الكبيرة دوراً بارزاً في ايجاد فلسفة إسلامية جديدة.. اذ بالإضافة إلى انشغاله بتحقيق النسخ الخطية الفلسفية، فقد كتب أيضاً العديد من الشروح والتعليقات على آثار الملاصدرا، ما أفضى إلى المساهمة في ايجاد رؤية معمقة وشاملة ومستحدثة حول الحكمة المتعالية، هذا فضلاً عن إطلاعه الواسع على التطور التاريخي للفكر الفلسفي منذ الميرداماد حتى عصرنا الحاضر.

ومن الشخصيات البارزة التي اشتغلت في الفلسفة المعاصرة منوجهر صدوقي الذي برع كمتخصص في تدوين وتاريخ آثار وأراء الفلاسفة الجدد الذين جاءوا بعد الميرداماد.

الفلسفة الإسلامية المعاصرة: رؤية مستقبلية:

يتوزعُ الفلاسفة المعاصرُون في إيران من حيث طرائق تفكيرهم واهتماماتهم إلى مجموعات عديدة.

مجموعة انكبت على قراءة التراث الفلسفي للحكمة المتعالية انطلاقاً من الخلفية التقليدية؛ تهدف إلى التعمق بها أو الكشف عن مكامن خبيئة وجديدة في طيات هذه الحكمة.

ثمة مجموعة أخرى، تشكلت ثقافتها الفلسفية في إطار الفكر الفلسفي الغربي فإنصرفت إلى الاهتمام بمدارس فلسفية رائجة في البيئة الغربية مثل الفلسفة التحليلية، الفلسفة الوجودية، فلسفة اللغة و...

لكن رغم هذا كله، فإن نظرة استشرافية إلى مستقبل الفلسفة الإسلامية المعاصرة تجعلنا أكثر تفاؤلاً، خاصة أن المشتغلين بالفلسفة اليوم لن يجدوا مفرأً من الخوض في المسائل المستحدثة انطلاقاً من: علم المعرفة، علم الإنسنة، الميتافيزيقا، وعرض هذه المسائل على الفكر الفلسفي التقليدي (مثل الحكمة المتعالية) واستنطاقه ازاءها، وبالتالي إجراء قراءة جديدة تتطرق من خلفية نقدية تجمع بين الفكر الفلسفي بشقيه التقليدي والحديث.

ومن الآفات التي تهدّد الفلسفة مستقبلاً، اقتصار النشاط الفلسفي على الجانب التعليمي من دون ان يلامس، - هذا النشاط -، الاشكاليات الجدية المتواالدة من طيات البحث الفلسفي، وأيضاً الجهل بمقتضيات وضرورات الفلسفة الإسلامية المعاصرة.. هذا بالإضافة إلى التطرف المزدوج إزاء الفلسفة التقليدية؛ أي التطرف في تنزيهها وإضفاء القدسية عليها، وفي الوقت نفسه، التطرف في رفضها ومواجهتها.

يمكن للفكر الفلسفي المعاصر ان يلعب اليوم دوراً أساسياً في إيصال الرسالة الفلسفية إلى أذهان وعقول المعاصرين من الناس؛ وذلك من خلال إثارة إنتباه هؤلاء إلى احتياجات وأسرار البشر الوجودية، وأيضاً من خلال تبيين الدور البنّوي الذي تلعبه الفلسفة في بناء الحضارات.